

ملخص البحث

لا مناص أن الدراسات اللسانية الحديثة قد درست اللغة في شتى أبعادها، ومن بينها الحجاج بشتى أنواعه؛ لما يكتسبه من أهمية بالغة، ولهذا فإننا نروم أن نسلط الضوء على الحجاج البلاغي في قصيدة من قصائد ابن القيم، حاور فيها النصارى في أسلوب شعري بديع، عارض فيها نماذج من عقيدتهم، مبينا ما تضمنه من فساد وأراجيف لا يقبلها عقل ولا ترضاهم شريعة.

ولأن هذه القصيدة زاخرة بالحجج والبراهين، مليئة بالأساليب المتعددة، أثرنا أن تكون دراستنا فيها عن حجاجية ثنائية الشرط والاستفهام، منتهجين في ذلك منهجا وصفيا مشفوعا بالتحليل، بغرض استخراج الأبعاد الحجاجية للشرط والاستفهام، ورؤية مدى فاعلية توظيفها عند ابن القيم، لنخلص في الأخير إلى أن ثنائية الشرط والاستفهام قد وُفِّقَ فيها ابن القيم أيما توفيق.

الكلمات المفتاحية: الحجاج البلاغي، البلاغة العربية، الاستفهام، الشرط، هائية ابن قيم الجوزية.

ABSTRACT:

There is no doubt that modern linguistic studies have examined language from various dimensions, including argumentation in its various forms, due to its significant importance. Therefore, we intend to shed light on the rhetorical arguments in a poem by Ibn al-Qayyim, in which he engaged with Christians in a beautiful poetic style, presenting examples of their beliefs and exposing the corruption and fallacies that their doctrine contains, which are neither acceptable to reason nor in accordance with religious law.

Since this poem is rich in arguments and evidence, filled with various rhetorical techniques, we have chosen to focus our study on the dual use of conditional and interrogative arguments. We will follow a descriptive approach accompanied by analysis to extract the rhetorical dimensions of the conditional and interrogative forms, and assess the effectiveness of their use by Ibn al-Qayyim. Ultimately, we will conclude that Ibn al-Qayyim excelled in employing the conditional and interrogative forms with great skill.

Keywords: Rhetorical Arguments, Arabic rhetoric, Interrogative, Conditional, Ibn al-Qayyim Poem.

1. مقدمة:

لا مزية في أن الدراسات الحديثة ما تركت شاذة ولا فاذة تتعلق باللغة إلا ودرستها، ومن جملة ما درستهُ الخطاب، ولم تُعن به على أنه ذلك التّحاور والتّخاطب بين مُرسِل ومُتلَق لا يعدو أن يكون بنية لغويّة غايتها التّواصل فحسب، إنّما نظرت إلى الخطاب نظرة أعمق، فدرست كلّ ما يتعلّق به من مقام وسياق ومقصديّة... إلى غير ذلك من متعلّقات الخطاب.

ولعلّ الخطاب البلاغيّ هو واحد من الخطابات التي انصبّت الدّراسات الغربيّة والعربيّة على تحليل خباياه الفنيّة وما ينضوي خلفها من وظائف إقناعيّة تثير العقل وتوخز الفكر لتحقيق غاية التّسليم والإذعان، فكان الغرض من ذلك كلّ الوقوف على كيمياء قوّة التّأثير الحاصلة عن رصد المخاطب لحركيّة علوم البلاغة وفق محاكاته لعقل وإحساس المخاطب معاً، في إطار انتهاجه مسالك الحجاج والاستدلال بما تملّيه النظرة الحديثة للبلاغة الجديدة عند بيرلمان، هذا الأخير الذي أغرى الكثير من المشتغلين العرب بالبحث اللّسانيّ بإثراء المكتبة الحجاجيّة البلاغيّة نذكر منهم: محمد العمري في مؤلّفه: الحجاج في الدّرس البلاغيّ، وكذا أبو بكر العزاوي في مؤلّفه: اللّغة والحجاج والخطاب والحجاج، فضلاً عن الباحثة أمينة الدّهري في مؤلّفها الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة. وسنخصّص بالتّحليل مدوّنة شعريّة لابن قيمّ الجوزيّة، هي عبارة عن خطاب حجاجيّ موجّه للنّصارى في أسلوب بلاغيّ لطيف، وذلك من مُنطلق أنّ اللّغة الشّعريّة عموماً، تمثّل نفوذاً سلطوياً في البيئة الإسلاميّة وفي ثقافة الملل والعقائد.

وقبل الولوج إلى غمار هذا البحث نطرح جملة من الأسئلة أهمّها: كيف استثمر ابن القيمّ أساليب البلاغة في إقناعه للنّصارى؟ وهل كان للاستفهام والشرط الكفاية الحجاجيّة في تبليغ الرّسالة؟ وهل استعمل هذه الأساليب قصداً أم أنّها جاءت عفواً؟ هذه الأسئلة وغيرها، نكشف عنها السّتار في هذه الورقة البحثيّة، منتهجين الوصف والتّحليل والتّعليل بغرض تبيان مكان الحجاج في أسلوبه الشرط والاستفهام عند العلامة ابن القيمّ رحمه الله.

2. تعريف الحجاج:

ظَلَّ الحجاج محلّ اهتمام الكثير من المجالات وعمدة فكّ الخلافات القائمة فيه، خاصة ميدان العقائد والفلسفة فضلاً عن المجال اللّغويّ بكونه وصلة الجدال والخصام، وغاية ذلك كلّ إقناع الخصم والتغلّب عليه، لذا نجده بؤرة بحث مكثف وعميق عند علماء الكلام والمنطق وعلماء اللغة والفلاسفة، وإنّا في هذا المقال نعزم على خوض الغمار في خطاب ابن القيمّ في بُعده العقديّ الذي جابه به أهل الكتاب، حتّى نقف على نقاط القوّة الحجاجيّة التي وظّفها ومعرفة إلى أيّ مدى يمكن للحجاج البلاغيّ إقحام فكرة ما أو إبطالها. ولكن بداية ما هو الحجاج؟

لقد اختلفت وتنوّعت التعاريف محاولة منها ضبط تعريف للحجاج، فهذا أبو بكر العزّاي يعرفه: "إنّ الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدّية إلى نتيجة معيّنة، وهو يتمثّل في إنجاز سلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثّل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو مثابة الحجج اللّغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها"¹. نستنبط من هذا أنّ تقديم الأدلة ورصف الحجج والبراهين باستعمال أساليب الخطاب ابتغاء الإقناع بأن يُبطل الخصم فكرة كان يعتقدّها، أو يؤمن أو يُدّعي لفكرة كان يفنّدها ويَدحضها ذلك هو الحجاج.

2.1 غاية الحجاج:

اقتضى البحث العلميّ أنّ لكلّ فنّ مصطلحات قائمة، ومنهج متّبع وغاية منشودة، وهذه الأخيرة بالذات يَعدّها كثير من العلماء والباحثين الفيصل بين العلوم والتّخصّصات. والحجاج كغيره من الفنون له غاية وهدف لعلّ أبرزها والتي تعدّ أسى غايات الحجاج -في الفكر الغربيّ والعربيّ على حدّ سواء، هو تحقيق التّفاعل بين الخطيب والجمهور المتلقّي وإذعانه لما يطرح عليه ودفعه إلى التّسليم به، حيث نلمس توافق الغاية باديا أيّما بُدوّ بين طرح تيتيكا وبيرلمان في نظريّة الحجاج، وكذا أدباء المسلمين، حيث نجد ابن الأثير يعظّم قوّة الكاتب في قدرته على استدراج الخصم إلى إلقاء يده، وإلّا فليس بكاتب، ولا شبيه له إلّا صاحب الجدل، فكلّ منهما يصوّب بآليات الإقناع خاصّته في حيّز مغالطاته القياسيّة كانت أم الخطابيّة².

والمراد من هذا، أنّ الباحثين قديما وحديثا اتّفقوا على أنّ الغاية من الحجاج دفع الخصم أو المتلقّي إلى التّسليم بالرأي الذي يريده المحاجج، وهذه الغاية عبّر عنها ابن الأثير قديما، بل ركن أساس لمعرفة الكاتب من غيره، وهو الأمر نفسه الذي نادى به مهندس الحجاج والبلاغة الجديدة تيتيكا وبيرلمان.

2.2 الحجاج البلاغي

سلف الحديث عن الحجاج وغايته، والتي تتمثّل في عرضٍ للأدلة والبراهين، قصد الإقناع والإفحام وتغيير الفكرة عند الطّرف الآخر، وأما الحديث الآن فعن الحجاج البلاغيّ، ولكن قبل ذلك يجب أن لا يفوتنا أنّ البلاغة كانت أوّل عهدها معيارية المنهج والمفهوم، فقد وضعها القدماء إرشادا للقول وتصويبا للخطاب، إذ هي ذلك الفنّ الذي يحوي قوالب أسلوبية متنوّعة، يستعملها الخطيب أو المتكلّم بشكل عام، لينقل ما يجيش في صدره، لهذا كانت دائمة الاتّصال بالذّوق الأدبيّ الرّفيع، والفنّ الجماليّ البديع، كما أنّها قد اعتنت واهتمّت بأفانين القول وبدائع الكلام. فاتّهمها غير واحدٍ من الباحثين أنّها فنيّة جماليّة ليس إلّا، ومُرادهم من ذلك أنّ البلاغة القديمة ليس من اهتماماتها الحجّة والإقناع، إنّما هي حصيلة الفنّ والإبداع.

وعلى النّقيض ممّا يبدو اليوم، فإنّ البلاغة الجديدة التي ظهرت مع ظهور اللّسانيات الحديثة بشقّي أطيافها وفروعها، تنظر إلى البلاغة نظرة أخرى، تدّعي في ذلك أنّها جاءت للقضاء على العزلة التي

بين البلاغة والإقناع، وبالغت وغالت في تتبّع مواطن الحجاج والاستدلال حتّى أضحت مرادفة للحجاج، فإذا أُطلق اسم البلاغة الحديثة فالمقصود بها الحجاج. إلّا أنّ هذا القول اعترته جملة من المآخذ أهمّها؛ أنّه من المبالغة أن نجعل الحجاج قسيما للبلاغة وهو في حقيقة الأمر لا يعدو أن يكون مقصدا من مقاصدها من إدراكٍ لكونه النّظم القرآنيّ، وذلك ابتغاء الوصول إلى أسرار الإعجاز، وكذلك من مقاصد البلاغة توحيّ تناسب البيان لمقتضى الحال، إضافة إلى التّركيز على مظهر الذّوق والفنّ الجميل، فضلا عن مقصد التأثير العاطفيّ والإمتاع النّفسيّ وأخيرا الاستدلال والحجاج؛ الذي يعدّ مقصدا من تلك المقاصد³.

وهذا ما سبق إليه الجاحظ مستشهدا بابن المقفّع في تعريفه للبلاغة: "لم يفسّر البلاغة تفسير ابن المقفّع أحد قطّ، سئل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى"⁴.

الملاحظ من هذا التعريف الذي أهر الجاحظ أنّه تعريف جامع مانع، فقد أتى بكلّ وجوه البلاغة ومقاصدها وذكر منها الاحتجاج؛ أي أنّ الحجاج الذي أضحي اليوم مرادفا للبلاغة الجديدة هو فرع منها وغاية من غاياتها ليس إلّا.

3. بين يدي المدوّنة: قبل التّحليل لا يفوتنا أن نعرّف بالمدوّنة ولويسيرا:

هذه القصيدة التي بلغت ستة وعشرين بيتا (26) قد نظمها ابن القيم -رحمه الله- في كتابه "إغائنة اللّهان عن مصايد الشّيطان" في معرض حديثه عن إفك النّصارى وبيان قبيح معتقدتهم، فبعد ما ذكر معتقداتهم الفاسدة وأظهر بطلانها نثرا، عاد فنظمها شعرا جمع فيه مختلف أنواع الحجاج، من عقليّ وشبه منطقيّ... وغيرها من التّقنيات الحجاجيّة، التي من جملتها التّقنيات الحجاجيّة البلاغيّة، فقد وظّف فيها شتى الأساليب، إلّا أنّنا أثّرنا أن نخصّ بالذكر أسلوب الاستفهام والشرط، لما يقدّمانه من مرونة انتقال بين دلالات سياقيّة مختلفة، منها ما هو ظاهر مباشر، ومنها ما يأتي في صيغة ما يصطّحّ عليه علماء البلاغة القدماء بالمعاني الثّواني، وهي تلك المعاني التي تخرج عن الأصل.

3.1 حجاجيّة الاستفهام:

قسّم البلاغيّون الكلام إلى خبر وإنشاء، وللإنشاء أنواع غير طليبيّ وطلبيّ، "من أنواع الإنشاء الطليبيّ الاستفهام؛ وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل بأداة خاصّة. وأدوات الاستفهام كثيرة منها: الهمزة، وهل"⁵، فالاستفهام في الأصل هو طلب الفهم، إذ من المعلوم أنّ الألف والسين والتّاء إذا اجتمعت فهي تدلّ غالبا على طلب القيام بالفعل، وعلى هذا فإنّ المُستفهم في الأصل يكون جاهلا بالأمر،

لهذا فإن الرفاعي قد عرفه بأنه: "طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، وهو الاستخبار الذي قالوا فيه إنه طلب خبر ما ليس عندك"⁶، فالمعنى الأصلي للاستفهام إذن هو طلب الفهم؛ لأنّ المستفهم يكون خالي الذهن، غير عالم بالشّيء.

3.2 أدوات الاستفهام:

كغيره من الأساليب البلاغية، للاستفهام عدّة أدوات تنقسم إلى أحرف وأسماء، قد جمعها الاخضري رحمه الله (ت983) في نظمه الشهير (الجواهر المكنون):

"..... وللإستفهام هل

أي متى أيان أين من وما وكيف أتى كم وهمز علما"⁷

جمع الأخضري -رحمه الله- أدوات الاستفهام، ابتداءً بهل، وهي بحسب الطلب وباعتبار المخاطب "يُطلبُ بها التصديق فقط"⁸، وهذا يعني أنّ الاستفهام بهل يوجبُ على المخاطب أن يجيب بأحرف الجواب، أي فيما يدور بين نعم أو لا، وانتهاءً بالهمزة، وهي بالنظر إلى حال المتلقي "ما يُطلبُ به التّصوّر تارة، والتّصديق تارة أخرى"⁹.

3.3 أغراض الاستفهام:

إنّ للاستفهام أغراضا عديدة، تخرج عن معناه الحقيقي أوصلها حبنكة الميداني في كتابه البلاغة العربية إلى ثلاثة وثلاثين غرضا، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

✓ الإنكار: وهو ما يُطلق عليه الاستفهام الإنكاري وضابطه أنّ المخاطب يريد من هذا الاستفهام النفي، ويحمله على إنكار قضيتته، وهذا كلّ في قالب استفهامي.

صور الاستفهام الإنكاري: يأتي الاستفهام الإنكاري مشفوعا بأداة من أدوات النفي، أو يأتي في خضمّ أسلوب الاستثناء، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: 35]¹⁰.

✓ التوبيخ والتّقريع: إنّ هذا الضّرب من الأغراض، يوجّهه المخاطب إلى المتلقي إذا فعل هذا الأخير شيئا غير حسن، أو ترك واجبا كان ينبغي القيام به¹¹.

✓ التّقرير: ويُسمّى هذا الضّرب من الأغراض التّقرير، ويُسمّيه أهل البلاغة أيضا الاستفهام التّقرير، وهو أن يُحمّل المُخاطب على الإقرار أو الاعتراف بأمر معروف عنده، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۚ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۚ أَلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۚ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ﴾ [الشّرح: 3-4]¹².

✓ التّعجب: كما أنّ التّعجب نوع من أنواع الأساليب الإنشائية، فإنّه يكون غرضاً أيضاً، فيستعمل حينئذ استفهاماً تعجبياً، وضابطه إثارة الحيرة والتّعجب لدى المتلقّي، ومن أمثلة ذلك قول المتنبي مخاطباً سيف الدولة، وهو يعود:

وَكَيْفَ تُعْلِكُ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ ... وَأَنْتَ لِعِلَّةِ الدُّنْيَا طَبِيبٌ؟!

وَكَيْفَ تَنْوُبُكَ الشُّكُوى بِدَاءٍ ... وَأَنْتَ الْمُسْتَغَاثُ لِمَا يَنْوُبُ؟!¹³

✓ التذكير: كما يبدو من اسمه؛ لتذكير المخاطب بقول، أو فعل، أو حادثة، ومن أمثله قوله تعالى:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ٨٩﴾ [يوسف: 89]¹⁴.

أورد ابن القيم في قصيدته الاستفهام لعدة أغراض، كما نوه في أدواته؛ من ذلك توظيفه:

-حرف الاستفهام "هل" في قوله:

"وَهَلْ أَرْضَاهُ مَا نَالُوهُ مِنْهُ؟ ... فَبُشْرَاهُمْ إِذَا نَالُوا رِضَاهُ

وَأِنْ سَخِطَ الَّذِي فَعَلُوهُ فِيهِ ... فَقَوَّتُهُمْ إِذَا أَوْهَتْ قُوَاهُ

وَهَلْ بَقِيَ الْوُجُودُ بِلَا إِلَهٍ ... سَمِيعٍ يَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ؟

وَهَلْ خَلَّتِ الطَّبَاقُ السَّبْعُ لَمَّا ... ثَوَى تَحْتَ التُّرَابِ، وَقَدْ عَلَاهُ

وَهَلْ خَلَّتِ الْعَوَالِمُ مِنْ إِلَهٍ ... يُدَبِّرُهَا، وَقَدْ سُمِرَتْ يَدَاهُ؟

وَهَلْ عَادَ الْمَسِيحُ إِلَى حَيَاةٍ ... أَمْ الْمُحْيَى لَهُ رَبٌّ سِوَاهُ؟

وَهَلْ تَقْضَى الْعُقُولُ بِغَيْرِ كَسْرٍ ... وَإِحْرَاقٍ لَهُ، وَلَكِنْ بَغَاهُ؟¹⁵

إنّ التأمّل الدقيق والتدبّر العميق في هذه التساؤلات والاستفهامات، يُفضي بنا إلى أنّ ابن القيم قد صاغها وأوردها في قالب السخرية والتهكم، فقد خرج الاستفهام عن حقيقته التي هي طلب الفهم والاستفسار، والداعي إلى ذلك هو تفاهة حججهم وضعفها، فكأنّه يقول لهم أيّ إله هذا الذي يرضى أن يُصَفَّعَ، وأيّ إله هذا الذي يترك الكون كلّهُ دون سياسة وتدير، بينما هو بين أيدي عبده يُصَفَّعَ ويضرب، وهذا ممّا لا ترضاه السجّايا السليمة وتأباه العقول الراشدة؛ لهذا فإنّ الغرض من هذه الاستفهامات، ولهذا فإنّ البعد الحجاجي يتجلّى في إثارة عقولهم ووخز فكرهم، حتى يتسنى لهم أعمالها فيرجعون عن غيبيهم.

-الاستفهام بـ "كيف":

استعمل ابن القيم أيضاً اسم الاستفهام "كيف"، وقد استعمله سلسلة متسلسلة؛ أي أنّه جاء في

جملة استفهامات بلغت أربعاً متتالية متواترة، فقال:

"وَكَيْفَ تَخْلَتِ الْأَمْلاكَ عَنْهُ ... بِنَصْرِهِمْ، وَقَدْ سَمِعُوا بُكَاءَهُ؟

وكيف أطاقت الخشبات حمل ال... إله الحقّ مشدودا قفاه؟

وَكَيْفَ دَنَا الْحَدِيدُ إِلَيْهِ حَتَّى ... يُخَالِطُهُ، وَيَلْحَقَهُ أَذَاهُ؟

وَكَيْفَ تَمَكَّنَتْ أَيْدِي عِدَائِهِ ... وَطَالَتْ حَيْثُ قَدْ صَفَعُوا قَفَاهُ؟¹⁶

تدلّ هذه الاستفهامات على أنّ ابن القيم قد ضاق بهم ذرعا، وأعيتهم عقيدتهم المبنية على السّفه والضلال، فبعد أن جاء بجملة من التّهكّات يسألهم فيها متعجّبا محتارا، متهمّما ساخرا، جاء بجملة أخرى من الأسئلة كأنّه يوافقهم فيها جدلا، على أنّ ما قالوه صحيحا، ثم يستدرجهم في الخطاب حتّى يفهمهم فيخرج بنتيجة أنّ ما يقولوه خطأ من كلّ نواحيه.

-الاستفهام بـ "هلاّ": (هلا هي عرف عرض وتحضيض وليست حرف استفهام)

جاء الاستفهام بـ "هلاّ" مرّة واحدة في القصيدة، وذلك في البيت قبل الأخير، فقال:

فَهَلَّا لِلْقُبُورِ سَجَدَتْ طُرَا ... لَضِمِّ الْقَبْرِ رَبِّكَ فِي حَشَا؟¹⁷.

العجيب في هذا الاستفهام، أنّه جاء جوابا، فهو يقول لهم: إن كانت هذه عقيدتكم فإنّه من باب أولى أن تعبدوا القبور وتسجدوا لها كما عبدتم الصليب من قبل، وقد كان الاستفهام عند ابن القيم مطيّة من مطايا الحجاج والاستدلال، فقد تضافرت أغراضه واجتمعت ابتغاء إفحامهم وردّهم عن غيهم.

3.4 حجاجية الشرط:

يُعدّ الشرط من العوامل الحجاجية التي تُستعمل على أنّها آلية من آليات الحجاج اللّغويّ، وقد برّع ابن القيم في استعمالها.

-الشرط بـ "إنّ":

من أدوات الشرط التي اعتمد عليها ابن القيم في العملية الحجاجية، حرف الشرط إنّ والتي "تستعمل في المعاني المحتملة الوقوع والمشكوك في حصولها، والموهومة والنّادرة، والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى، فهي لتعليق أمر بغيره عموماً، فمن المعاني المحتملة الوقوع، قوله تعالى: ﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْ قَتْلُكُمْ فَافْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: 191]¹⁸، والمراد من هذا أنّ حرف الشرط إنّ، لا يؤتى به في الأمور القطعية، إنّما تساق في حالة الشكّ أو التّوهم أو الاختلاط، وهذا ما نلاحظه عند ابن القيم في قوله:

"وَإِنْ سَخِطَ الَّذِي فَعَلُوهُ فِيهِ ... فَقَوَّوْهُمْ إِذَا أَوْهَتْ قَوَاهُ"¹⁹

سلف الذّكر أنّ حرف الشرط "إنّ" تأتي به العرب في سياق الشكّ، وهذا ما أورده ابن القيم في هذا البيت، فقد استعملها عندما وضع احتمالا، وافترض جدلا أنّ الإله ضرب وصُلب، فهو يشكّكهم في ذلك،

إضافة إلى إيهامهم بأنّ ذلك لو حدث لأسخط الإله وأغضبه، ولو حدث هذا فهو زيادة بيان لضعف هذا الإله، فانظر إلى البعد الحجاجي لـ "إن" في هذا البيت.

جاءت "إن" في بيت آخر، وذلك في قوله:

"فَإِنْ عَظَّمْتَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ قَدْ ... حَوَى رَبَّ الْعِبَادِ، وَقَدْ عَلَاهُ
وَقَدْ فُقِدَ الصَّلِيبُ، فَإِنْ رَأَيْنَا ... لَهُ شَكْلًا تَذَكَّرْنَا سَنَاهُ"²⁰

بعد أن ذكر أنّ الصليب حقيق به أن يُكره وأن يُنبذ لا أن يُعبد، فاق حرف الشرط إن في بيتين متلازمين، فقال لهم: إن كنتم تزعمون أنكم تعظمونه لا لأنّه آلة التعذيب، إنّما تعظمونه لأنّه حوى إلهكم، ولأنّه يذكركم بإلهكم، فالبعد الحجاجي هنا هو الاستدراج، فقد افترض أنّهم يقولون ذلك، فساقهم إلى النتيجة نفسها وهي أنّهم مخطئون أولاً وأخراً. وهذا يتجلى في البيتين الأخيرين، حين قال:

"فَهَلَّا لِلْقُبُورِ سَجَدْتَ طَرَا ... لَضِمَّ الْقَبْرِ رَبَّكَ فِي حَشَاهُ؟
فَيَا عَبْدَ الْمَسِيحِ أَفَقِ، فَهَذَا ... بِدَايَتِهِ، وَهَذَا مُنْتَهَاهُ"²¹
-الشرط بـ "إذا":

ومن أسماء الشرط التي وظّفها ابن القيم في قصيدته وحاجج بها اسم الشرط إذا، حيث "الأصل في (إذا) أن تكون للمقطوع بحصوله، وللکثير الوقوع، فمن المقطوع بحصوله قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: 180]، فإنّ كل واحد منّا سيحضره الموت، وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتُهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: 25]"²².

وكان أوّل استعمال لها في البيت الثاني، في قوله:

"إِذَا مَاتَ الْإِلَهُ بِصُنْعِ قَوْمٍ ... أَمَاتُوهُ فَمَا هَذَا الْإِلَهُ؟"²³

استعمل ابن القيم اسم الشرط إذا، وذلك متعجباً من ضحالة فكرهم، وهشاشة معتقدتهم وسفاهة رأيهم، فهل يُعقل أنّ إلهاً يتّصف بصفات الكمال والجلال يقتله قومه! فلو حدث هذا -وهذا لا يحدث- فأيّ إله هذا؟! وكيف يصحّ أن نقول عنه إله؟ وهذا ما عبّر عنه في جملة جواب الشرط، التي جاءت على صيغة الاستفهام، ومن براعة ابن القيم اللغوية أنّه جاء باسم الاستفهام ما، الذي يدلّ على الاحتقار؛ لأنّ ما تستعمل لغير العاقل، فدلّ هذا على وضاعة تفكيرهم.

وضّح ابن القيم أيضاً الشرط في بيت آخر، وقد أحاطه بهالة حجاجية فقال:

إِذَا رَكِبَ الْإِلَهُ عَلَيْهِ كُرْهًا ... وَقَدْ شُدَّتْ لِتَسْمِيرِ يَدَاهُ"²⁴

يردّ ابن القيم على إفك النصارى، فيقول لهم: كيف قبلت عقولكم ورضيت أفهامكم بأنّ الإله - وهي الصّفة التي زعمتم أنّ المسيح عليه السّلام قد اتّصف بها- قد سُمِّرَ وصُلِبَ، ولم تأت جملة جواب الشرط في هذا البيت، بل في البيت الذي بعده.

"فَذَاكَ الْمَرْكَبُ الْمَلْعُونُ حَقًا... فَدُسُّهُ، لَا تَبْسُهُ إِذْ تَرَاهُ"²⁵

فهو يرى أنّ الإله الذي يُصَلَّب ويُسَمَّر، فإنّ عاقبته أن يُحتقر لا أن يُعظَّم، وأن يُداس لا أن يُباس.

4. خاتمة:

وفصل الخطاب في هذا الباب، أنّه قد تبين لنا أنّ ابن القيم -رحمه الله- قدّم جهدا واضحا في محاورته للنصارى، والتي خصّصنا الذّكر فيها بثنائية الاستفهام والشرط، ولا يفوتنا في الختام أن نخرّج بجملة من النتائج أهمّها:

- دراية ابن القيم بأسرار اللّغة وأفانين البلاغة بادية في هذه القصيدة.
- نوع ابن القيم في أغراض الاستفهام، فلم تأتي على وتيرة واحدة، إلّا أنّ الغرض العام وهو التّهكم والتّعجب من هشاشة عقيدتهم.
- كان الاستفهام عنده مطيّة من مطايا بلوغ الإقناع والإفحام.
- أمّا الشرط فكان جلّه باستعمال إنّ وإذا، وقد كان الغرض منهما الاستدراج ابتداء، فهو يُسلّم جدلا أنّ ما يقولونه صحيح، ثمّ يبيّن سفاهة قولهم.
- تضافرت ثنائية الشرط والاستفهام، لتشكّل قوّة حجاجيّة، فالاستفهام بيان لفضاعة رأيهم وإعلان عن قلة عقولهم، والشرط احتواء واستدراج فتقوم عليهم الحجّة.
- وظّف ابن قيم الجوزيّة الحجاج البلاغيّ وجعله مدخلا من مداخل الحجج العقلية، حيث نجده قد صرّح في باكورة قصيدته أنّه يخاطب العقلاء من النصارى، فهو بهذا جعل من البلاغة التي سخّرت لمخاطبة العاطفة سبيلا إلى مخاطبة العقل، أي أنّنا يمكن أن نقول إنّّه قد نحت خطابا بمنطلق الإيتوس واللّوغوس.

5. الهوامش:

¹- أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، دار العمدة، ط1، الدار البيضاء، 2006، ص14.

²- ينظر: أماد كاظم البرواري، المحاجة العقلية في برهنة حقائق القرآن -مطارات النورسي للفكر المادي-، مؤسسة السبيل، د.ط، د.ت، ص17، 18.

- ³- ينظر: علي محمود عباس موسى، مقاصد البلاغة العربية دراسة تأسيسية، جامعة الأزهر، مجلة كلية البنات الإسلامية، أسيوط، العدد 19، يونيو، 2022م، ص 692.
- ⁴- الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ج 1، 1423هـ، ص 114.
- ⁵- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 1430هـ-2009م، ص 88.
- ⁶- أحمد مطلوب أحمد الناصري الصيادي الرفاعي، أساليب بلاغية، الفصاحة- البلاغة- المعاني، وكالة المطبوعات، الكويت، ط 1، 1436هـ، ص 118.
- ⁷- الأخضر، الجوهر المكنون في صَدَف الثلاثة الفنون، تحقيق: محمد بن عبد العزيز النصيف، مركز البصائر للبحث العلمي، د.ت، ص 31.
- ⁸- محمد بن عرفة الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، المكتبة العصرية، بيروت، ج 2، د.ت، ص 322.
- ⁹- محمد بن عرفة الدسوقي، حاشية الدسوقي، مرجع نفسه، ص 322.
- ¹⁰- ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط 1، 1996، ص 271.
- ¹¹- ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، البلاغة العربية، مرجع نفسه، ص 274.
- ¹²- ينظر، عبد الرحمن حبنكة الميداني، مرجع نفسه، ص 275.
- ¹³- ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، مرجع نفسه، ص 279.
- ¹⁴- ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، مرجع نفسه، ص 281.
- ¹⁵- ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ج 2، ص 291.
- ¹⁶- ابن قيم الجوزية، المصدر نفسه، ص 291.
- ¹⁷- ابن قيم الجوزية، المصدر نفسه، ص 292.
- ¹⁸- فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2000م، ص 04.
- ¹⁹- ابن قيم الجوزية، المصدر سابق، ص 291.
- ²⁰- ابن قيم الجوزية، المصدر سابق، ص 291.
- ²¹- ابن قيم الجوزية، المصدر سابق، ص 292.
- ²²- فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، مرجع سابق، ص 71.
- ²³- ابن قيم الجوزية، المصدر سابق، ص 290.
- ²⁴- ابن قيم الجوزية، المصدر سابق، ص 291.
- ²⁵- ابن قيم الجوزية، المصدر سابق، ص 291.

6. قائمة المراجع:

الكتب:

- أساليب بلاغية، الفصاحة- البلاغة- المعاني أحمد مطلوب أحمد الناصري الصيادي الرفاعي، 1436هـ، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1.
- الجوهر المكنون في صَدَف الثلاثة الفنون، الأخضري، تحقيق: محمد بن عبد العزيز النصيف، د.ت. مركز البصائر للبحث العلمي.
- المحاجة العقلية في برهنة حقائق القرآن آماد، كاظم البرواري، د.ت -مطارحات النورسي للفكر المادي-، مؤسسة السبيل، د.ط.
- الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، 2007، دار النَّشر الحمدية، ط1.
- اللّغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، 2006، دار العمدة، الدار البيضاء. ط1.
- البيان والتبيين، ج1، الجاحظ، 1423هـ، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- البلاغة العربية، عبد الرحمن حبنكة الميداني، 1996، دار القلم الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط1.
- علم المعاني، عبد العزيز عتيق، 1430هـ-2009م، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1.
- معاني النَّحو، فاضل صالح السَّامرائي، 2000م، دار الفكر للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، الأردن، ط1.
- إغاثة اللَّهْفان في مصايد الشَّيطان، ج2، ابن قَيِّم الجوزية (ت751هـ)، د.ت، مكتبة المعارف. الرياض، المملكة العربية السعودية.
- حاشية الدَّسوقي على مختصر المعاني لسعد الدَّين التَّفتازاني، ج2، محمد بن عرفة الدَّسوقي، د.ت، المكتبة العصرية، بيروت.

المقالات:

- مقاصد البلاغة العربية دراسة تأسيسية، علي محمود عباس موسى، 2022م. مجلة كلية البنات الإسلامية، المجلد19، العدد2، ص 692.